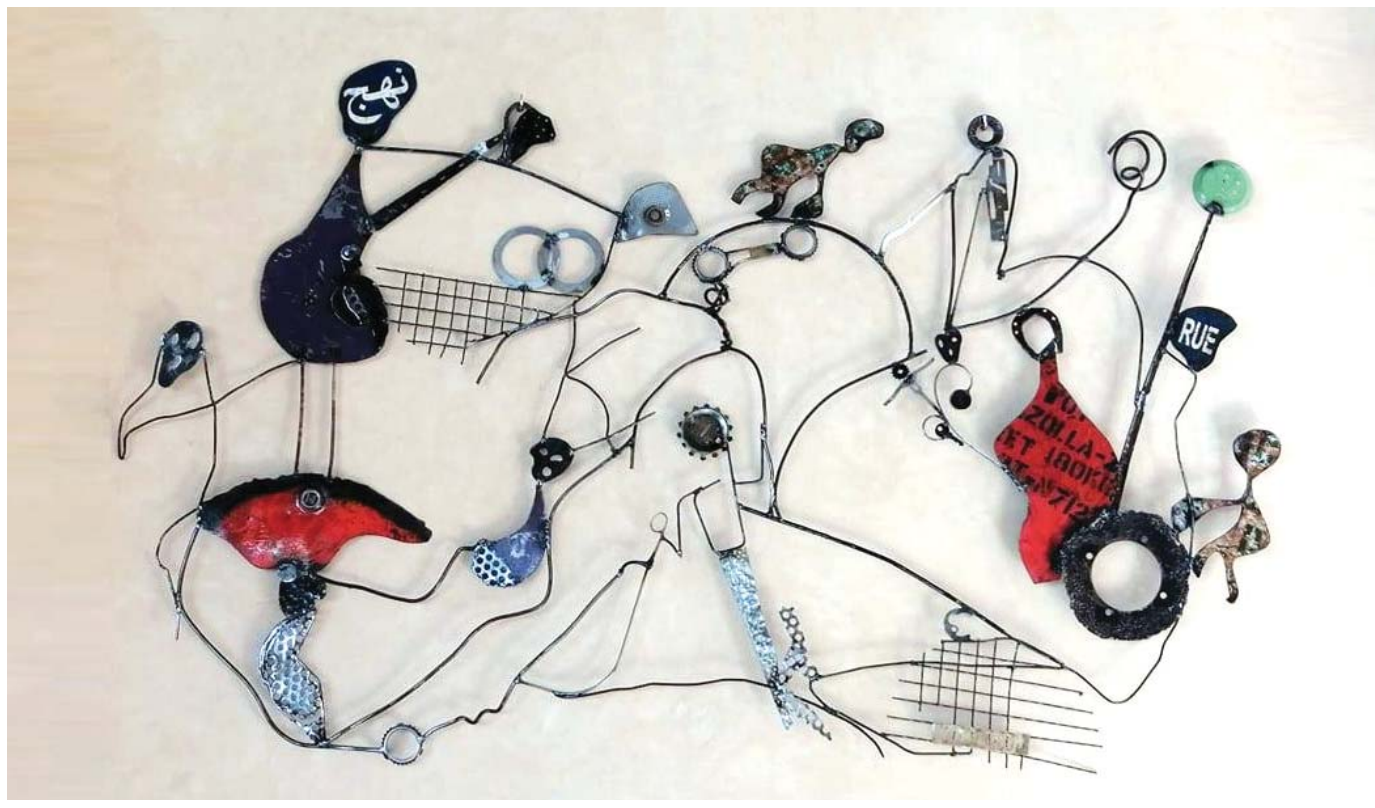

العنوان الجيد يفسح المجال لتعدد القراءات (عمل تنصيبي للفنان حمادي بن نية)

هل أتاك حديث العتبات؟

غاية النقد إبراز قيم الكتابة وسبر المعاني التي تحملها في علاقتها بالإنسان والعالم

يفاخر بعض النقاد الأكاديميين بتوخي المناهج الغربية الحديثة، وهي في عمومها آلية تطبق على المدونة العربية، فتسوي بين غثها وسمينها، وترتهن في تحاليلها إلى أحكام الآخرين.

أبوبكر العيادي
كاتب تونسي

عندما تحدثنا عن تهافت النقد الأكاديمي، عاب علينا أحد أصدقائنا الجامعيين خلطنا بين علم الخطاب الذي يضم البحث في ما به يكون النصّ أدبيّا، أي الشعريّة، والعلاقات التي تقيمها النصوص في ما بينها، أي التناصّ، وتحليل جميع مكوّنات الأثر، أي العتبات، وبين تذوّق الأثر الأدبيّ وتقريب أسرار بلاغته ودلائل الفنّ فيه إلى القرّاء؛ أي بين الخطاب النقدي كدلالة اصطلاحيّة تقنيّة تكوّن لغة ثانية يتعامل بها أهل الصناعة، وبين المعنى المتداول للنقد الذي يوهم بأنه يتوجّه إلى الجميع؛ فلا يمكن في اعتقاده تسوية النقد الأكاديمي بالنقد الصحافي، كما لا يمكن لفيلسوف أن يناقش رأي فيلسوف آخر في صحيفة يومية على سبيل تبسيط المعرفة.

ولنبدأ بالنقطة الثانية، ليس صحيحا أن الفلاسفة لا يناقشون بعضهم بعضا في الصحف اليومية، بخطاب مبسّط يفهمه الجميع. حسبنا أن نقرأ "مجلة الفلسفة" الفرنسية، التي يردّ فيها بعض الفلاسفة حتى على أسئلة الأطفال، أو نتابع مقالات الفيلسوف روجي بول دروا في صحيفتي "لوموند" و"ليزيكو"، ومجلة "لوبوان" لندرك أن كل المصطلحات يمكن شرحها، وكل المفاهيم يمكن تقريبها للقارئ العادي، فمن يمسك بزمام مادته وبأعنة الخطاب قادر على تقريب المفاهيم الأشدّ تعقيدا لكل راغب. يقول أينشتاين "إن لم تستطع أن تشرح مفهوما لطفل في السادسة من عمره، فمعناه أنك لم تفهمه تماما".

وهذا يقودنا إلى النقطة الأولى، لُبِّ خِلافنا، وهي أن التهافت الذي عنيناه ناجم عن قصور في تمثل المناهج الغربية، أدّى بدوره إلى تهافت في تطبيقها على نصوصنا العربية، أي أن مأخذنا لا يتوجه إلى ما يُدرس في الحرم الجامعي من مناهج وما يُكتب في مجلاتها المحكّمة من مقالات ودراسات صيغت لخاصّة الخاصّة، وتتكئ في الغالب على ما يجدّ في الغرب من مناهج، وإنما هو موجّه بالأساس إلى اتخاذ جانب من الأكاديميين تلك المناهجَ شبكةَ قراءة يسلّطونها على نصوصنا بشكل آلي لا يميز بين غث وسمين.

وينشرون مقارباتهم في المجلات الثقافية مذيّلة بثبت للمراجع والهوامش يعادل أحيانا حجم المقالة، لتأكيد طابعها العلمي، دون أن يملك ذلك النقد جرأة النقد الصحافي (نقصد الجدير منه بهذه الصفة) الذي يقيّم العمل، سلبا أم إيجابا، فالنقد الأكاديمي كما جاء في موسوعة يونيفرساليس "يَنبذ إصدار الأحكام، لاسيما إذا كانت بشكل جليّ؛ ففي الجامعة يرتكز النشاط على البحث في الأدب، والوصف، والتحليل، والتأويل، والارتهان إلى أحكام الآخرين".

بين الشعرية والتناص

لا نخفي القول إننا لا نجد في تلك المقالات التي تزعم البحث في الشعرية والتناص والعتبات ما يحيل على قيمتها الإجرائية. ولنأخذ العتبات مثالا لتهافت النقد الأكاديمي عندنا، كما وردت في مقالة لباحث أكاديمي تونسي عن رواية لكاتبة خليجية.

جاء في مقالته أن شعريةَ خطابِ العتبات نوعان، خارجية وداخليّة، فأما الخارجية فبدأها بعتبة التحديد الأجناسي، ذاكرا أن "الكاتبة عينت انتماء نصها إلى جنس الرواية فحصرته في خانة أجناسية محددة، وأنجزت بذلك عقدها مع المتلقي بأن أثبتت هوية نصها الذي ينخرط ضمن مسالك التخييل، وفي ضوئها يجب أن يُفهم ويُؤوّل".

تلتها عتبة المؤلفة التي "عمدت إلى إثبات هويتها المرجعية بخط سميك اختارت له اللون الأسود، ذات لون الحجاب، وكأنها تمارس فعل الكتابة من خلف حجاب، مخافة ارتكاب المحظور إن هي نزعته في مجتمع ذكوري يحرّم على الذات الأنثوية الكشف والمكاشفة"، ثم عتبة العنوان التي تمثل في رأيه "مفتاح النص للمتلقي"، وأخيرا عتبة الصورة، وهي "نص مكثّف دالّ بألوانه وأشكاله ورسومه.. ينفتح على إمكانيات تأويل متعددة".

تحديد أجناسي

أما التحديد الأجناسي فهو ليس قاعدة عامة، فكم من سلسلة لا تحدد جنس الكتاب، سواء في أوروبا وأميركا أو في بلاد العرب، ولا نذكر أن عبارتي "رواية" و"قصص" تصدرتا أغلفة أعمال نجيب محفوظ، لأن جنس النص يُستدل إليه بالمتن وعناصره.

كذلك صورة الغلاف، فدور النشر الفرنسية الكبرى مثلا من النادر أن تدرجها، بل تكتفي بتأطير الغلاف بلون يميز كل دار. وقد تطبع على غلاف الطبعة الثانية صورة، فأي العتبات نختار حينئذ؟

ومثله العنوان الذي يعتبره المفتاح الضروري لسبر أغوار النص والتعمّق في شعابه، والأداة التي بها يتحقّق اتساقه وانسجامه ومقروئيته. وهذا مبالغ فيه حدّ الشطط، فلئن كانت بعض العناوين مناسبة للمتن الذي تفتح عليه، فإنها في أحيان كثيرة لا تحيل على أي شيء، مع أنها تعلن عن روائع أدبية مثل "جان آير" لشارلوت برونتي، و"ديفيد كوبرفيلد" لتشارلز ديكنز، و"ذهب مع الريح" لمارغريت ميتشل، و"بدرو بارامو" لخوان رولفو.

وعندما سئل أمبرتو إيكو عن "اسم الوردة" الذي لا ينبئ بأجواء روايته الشهيرة، قال إن العنوان ينبغي ألاّ يكون أحادي المعنى يفرض فكرة مسبقة عن النص، بل ينبغي فسح المجال لتعدد القراءات. وهو ما لم يفلح فيه أي ناقد، وظل العنوان لغزا رحل مع صاحبه.

كذلك عتبة المؤلف، فما كتبه صاحبنا يوهم بأنه لا يعرف صناعة الكتاب في أوطاننا، فليس المؤلف من يختار الخط ولا لونه وحجمه فضلا عن الصورة التي عادة ما تُستلّ مما هو متوافر على الشبكة، بل الناشر. ومن ثَمّ يبدو ربطُه اللونَ الأسود بالحجاب والمجتمع المحافظ الذي يحرّم على المرأة أن تبدع موقفا مجانيّا يُسقط تصوّرات مُنشئه على واقع معلوم. فما قوله لو كان المؤلف رجلا كُتب اسمُه باللون الأسود؟

ثمّ مرّ بعدها إلى العتبات الداخلية، فأورد منها اثنتين هما عتبة الإهداء، فذكر أن المؤلفة أهدت كتابها إلى زوجها وأولادها، ما يعني بالنسبة إليه أنها كشفت عن حضور الذاتي في نصها، فأشّرت إلى بعض سياقاته الذاتية والمرجعية، وكلنا يعلم مدى حضور الذاتي في أي عمل إبداعي حتى وإن خلا من الإهداء، الذي يتجنبه في الغالب الكثير من الكتاب. وعتبة التصدير التي استخلص منها "مؤشرات دالة على المدارات الأساسية في روايتها: الذاكرة الفردية والجماعية، الآخر، الرجل والمجتمع والمكان المتعدّد الذي احتضن وجودها الفردي والاجتماعي".

ولسائل أن يسأل ما وجه الإفادة التي يحصل عليها القارئ من هذه العتبات وهذا النقد الذي يضفي عليها ما ليس فيها، تمثلا، بل امتثالا لنظرية جيرار جينيت صاحب الجناية الكبرى على نقادنا الميامين؟ وما جدوى منهجية جعلت لدراسة الأشكال الأدبية دراسة آلية يستوي أمامها الجيّد والرديء؟ جميل أن نعنى بأشكال النصوص وبناها، ولكن شرط ألا ننسى أن غاية النقد إبراز قيم الكتابة الإبداعية وسبر المعاني التي تحملها في علاقتها بالإنسان والعالم.

باحث إنكليزي يقتحم عوالم الربع الخالي آخر المناطق المجهولة على الأرض

حازم خالد

القاهرة – في كتاب برترام توماس "العربية السعيدة، عبور الربع الخالي في الجزيرة العربية"، يقف القارئ على رؤية أخرى لتلك الصحراء الممتدة في مهابة لا تخفى على عين، ويعتبر المؤلف أن الإنسان في هذا الجزء من الأرض وطوال القسم الأكبر من التاريخ، كان في حرب مستمرة مع البيئة من ناحية ومع جيرانه من الناحية الأخرى.

فالصحراء تمتد على كل أجزاء شبه جزيرة العرب، الواقعة جنوب الصحراء السورية "وهي ما يُطلق عليها: صحراء الجزيرة العربية" وعلى الجبال المنتشرة في سيناء "أي الجزيرة العربية الأم".

يقول المؤلف "صحيح أن مصطلح السعيدة وهذه الكنية لا تنسجم ولا تليق بقفار الربع الخالي الذي يشكل قسما كبيرا من الجزيرة العربية، ومع ذلك نجد أن الجزء الأوسط من القسم الجنوبي، الواقع على حدود المحيط الهندي، أرضٌ، كانت في يوم من الأيام، فريدة في حسنها وشهيرة بعراقتها، وإذا كانت في الجزيرة العربية منطقة أخرى تستحق وصفها بـ'السعادة' غير اليمن الذي عرف القدماء أمجاده حق المعرفة، فإن هذه المنطقة هي تلك التي يُطلق عليها اسم مقاطعة ظفار، التي هي بمثابة أرض عامرة بالمراعي والغابات الفاخرة التي تكسو الجبال المنحدرة التي تطل على البحر، والتي فيها مَجارٍ مائية دائمة ومروج خضراء عامرة بضَوء الشمس، وفيها أيضا مشاهد واسعة يراها الرائي من خلال الأشجار، وفيها أيضا ممرات خضراء تسر الخاطر".

ويكشف المؤلف أن هذه المنطقة، جاء إليها المصريون القدماء بحثا عن البخور الذي كانوا يستعملونه في تحنيط جثامين الفراعنة المقدسين؛ ومن هذه المنطقة أيضا، ربما تكون "العُمُد" (الأعمدة) المستعملة في معبد سليمان "عليه السلام"، قد قُطعت من صخور هذا المكان، هذا إن لم تكن ظفار هي نفسها أوفير التي أتى العهد القديم على ذكرها؛ يزاد على ذلك أن هذه المنطقة هي السوق التقليدية للعاج وريش الطاووس.

وحاول برترام توماس في صفحات هذا الكتاب تدوين قصة الرحلة التي قام بها مؤخرا إلى الربع الخالي، هي والأبحاث التي أنجزها في مقاطعة جلفار الجميلة، مدخل أو بوابة الرحلة التي خاضها، والتي يرى أنها هي الجزيرة العربية السعيدة في أيامنا هذه.

ويشدد المؤلف على أن الربع الخالي البكر، والصحراء الجنوبية الكبرى، يتطلبان جهدا جهيدا لعبورهما والبحث فيهما لاكتشاف سحرهما وجاذبيتهما.

يقول توماس "عندما غادرت إدارة شرق الأردن قبل ست سنوات، متوجها إلى بلاط مسقط وعُمان، كانت تراودني بالفعل أحلام كثيرة؛ كنت أعلم أن وهاد الأرض النائية، هي ومنطقة القطب الشمالي، وكذلك قارة أنتاركتيكا، وأيضا منابع نهر الأمازون، فضلا عن الفراغات الداخلية الشاسعة في كل من آسيا وأفريقيا، كل هذه الأماكن، الواحدة بعد الأخرى، راحت تُسلِم أسرارها للفضول الإنساني، وإنها لفرصة غريبة أن يبقى الربع الخالي بمثابة الأرض الأخيرة التي لم يعرف البشر أي شيء عنها إلى يومنا هذا، ولا تزال تثير دهشتنا وفضولنا وبخاصة عندما نأخذ بعين اعتبارنا مسألة عراقة وقدم الجزيرة العربية المستقرة، التي تلامس مناطقها الحدودية الحضارتين الباكرتين المصرية القديمة والحضارة البابلية".

> في كتاب برترام توماس يعتبر المؤلف أن الإنسان في هذا الجزء من الأرض وطوال القسم الأكبر من التاريخ، كان في حرب مستمرة مع البيئة من ناحية ومع جيرانه من الناحية الأخرى

والمؤلف برترام توماس حاصل على نوط الإمبراطورية البريطانية، وهو وزير سابق في بلاط سلطان مسقط وعُمَان، وضابط سياسي سابق في العراق، ومساعد الممثل (المندوب) البريطاني في شرق الأردن. وهو المؤسس الرئيس للجمعية الجغرافية الملكية، حاصل على ميدالية بيرتون التذكارية من الجمعية الآسيوية الملكية؛ وحاصل أيضا على الميدالية الذهبية من الجمعية الجغرافية الملكية في أنتويرب، وحاصل أيضا على الميدالية الذهبية من الجمعية الجغرافية الملكية.

الجدير بالذكر أن كتاب "العربية السعيدة، عبور الربع الخالي في الجزيرة العربية"، لمؤلفه برترام توماس صدر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب، ضمن سلسلة الألف كتاب. وقام بترجمة الكتاب وتقديمه صبري محمد حسن.

صحراء ممتدة في مهابة (صورة فوتوغرافية لسالم سلطان عامر الحجري)

البحرين تستضيف ورشة عمل فن الفسيفساء

المنامة – انطلقت مؤخرا بالعاصمة البحرينية المنامة أولى ورشات العمل الفنية لشهر أغسطس في مركز الفنون، وذلك مع ورشة عمل "فن الفسيفساء".

وتأتي سلسلة ورشات العمل الفنية بتنظيم من هيئة البحرين للثقافة والآثار وبالتعاون مع مركز ميراكي للفنون. وخلال ورشة العمل تعرّف المشاركون، وكانوا من أعمار مختلفة، على عدد من المهارات اللازمة لصناعة لوحات الفسيفساء. كما تم تزويدهم بالتوجيهات الأساسية لاختيار أنواع وألوان البلاط والتصاميم والمواد اللاصقة، ليخرج كل مشارك في نهاية الورشة بلوحة فسيفساء خاصة به.

وتستمر ورشات العمل الفنية خلال شهر أغسطس الجاري لتغطي مجالات فنية متنوعة كفنون الرسم بالأكريليك، وفن التشكيل بالخيوط ومبادئ النجارة. وتقام في الـ17 من الشهر الجاري ورشة عمل "تقنيات الرسم بالأكريليك"، والتي سيتعلم فيها المشاركون، المحددة أعمارهم بين 10 و15 عاما، تقنيات استخدام ألوان الأكريليك في رسم لوحات متنوّعة المواضيع.

وانتقالا إلى مجال فني آخر، وهو التشكيل بالخيوط، سيكون المشاركون في هذه الورشة التي تقام في 24 أغسطس، وهم من سن 16 عاما فما فوق، على موعد مع تعلّم طريقة تشكيل أنماط وتراكيب باستخدام الخيوط الملونة والمسامير.

وفي ورشة العمل الأخيرة التي يستضيفها مركز الفنون بالمنامة في 31 أغسطس الجاري سيتم تعريف المشاركين، من 10 إلى 15 عاما، على مهارات النجارة وكيفية صناعة مجسمات خشبية خاصة.